فلسفة اللغة والتأويل: مقاربة إبستيمولوجية

أ.د/ داود خليفة(*)

جامعة حسيبة بن بوعلي–الشلف(الجزائر)

ملخص:

احتلت اللغة في القرن العشرين مكانا مركزيا في الفلسفة، حيث نزعت الفلسفة المعاصرة نحو اللغة باعتبارها الموضوع الرئيس الذي ينبغي على الفلسفة أن تهتم به ويشتغل عليه الفلاسفة، هذا المنحى المتمثل في الاهتمام باللغة أصبح يسمى بما عرف بـ(**التحول اللغوي**)، الذي تجسد خاصة مع الفلسفة التحليلية.

في مقابل حداثة مبحث اللغة في الفلسفة، فإن التأويل كان مبحثا كلاسيكيا عرفته الفلسفة منذ عهود بعيدة، حيث كان التأويل من الموضوعات الهامة التي تناولها الدرس الفلسفي بدءا من الإغريق مرورا بفلاسفة العصور الوسطى وحتى الفلسفة الحديثة والمعاصرة.

نروم في هذا العمل إلى مساءلة التأويل مساءلة إبستيمولوجية، خاصة وأن التأويل تجاوز حدود الاقتصار على النصوص الدينية إلى علوم الإنسان.

نص المقال:

مفاهيم أولية:

فلسفة اللغة: كانت فلسفة اللغة تعبيرا مباشرا عن التفاعل بين الخطاب الفلسفي ومبحث اللغة، من هنا أمكن اعتبارها فلسفة التفكير في اللغة، وهي —كما أشرنا – من المباحث الجديدة في الفلسفة، حيث لم تصبح اللغة موضوعاً مركزياً في الفلسفة إلا مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين الميلاديين.

يمكن تعريف فلسفة اللغة بأنها إخضاع اللغة لدراسة (داخلية) واعتبارها هي نفسها موضوع بحث، أي يتوجه هذا المفهوم إلى اعتبار اللغة مجالا للبحث أو موضوعا للدراسة. هذا المفهوم ليس إلا مفهوما تقريبيا، لأن فلسفة اللغة لا ينبغي أن ينظر إليها كمفهوم بل كموضوع، أي يتحدد موضوع فلسفة اللغة بالموضوعات التي تتناولها. وهذا النوع من البحث في اللغة يختلف عن مفهوم (فلسفة حول اللغة) التي تعني دراسة اللغة دراسة (خارجية)، حيث يكون موضوع اللغة معروف

(*)– **داود خليفة**، أستاذ الفلسفة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة حسيبة بن بوعلي، بالشلف.

مسبقا والاكتفاء بالبحث في علاقاته مع موضوعات أخرى، مثل علاقة اللغة بالفكر، وبالعالم، وبالواقع، وبالوجود، وبالمجتمع، وبالسلطة، وبالدين، وبغيرها من الموضوعات الأخرى التي ترتبط في علاقة ما باللغة.

ورغم حداثة مبحث اللغة إلا أن له جذور وإرهاصات في الفلسفة اليونانية، ولعل أول مواجهة بين اللغة والفلسفة كان عند السفسطائيين؛ فمن المعلوم أن السفسطائيين لبسوا ثوب اللغة لما حاولوا هدم الفلسفة حينما أدركوا الإمكانات التي يمكن أن تحملها اللغة كالمغالطة والقدرة على التمويه وإيقاع الخصم في الخطأ والتناقض ودور الخطابة في تغيير الآراء والمواقف... ولهذا السبب كان اهتمام السفسطائيين باللغة بارزا.

وربما هذا هو السبب أيضا الذي جعل **أرسطو** (384 ق م – 322 ق م) يقنن اللغة ويضبط قواعد التفكير، حيث لم يكن هدف **أرسطو** من وضع المنطق – في كتاب الأورغانون– الذي يضبط قواعد التفكير سوى للتخلص من عيوب اللغة والقضاء على مشاغبات السفسطائيين اللغوية.

في معنى التأويل: تتفق المعاجم على أن التأويل في اللغة العربية هو التعريف والشرح والترجمة والتعبير، وبمعنى عام هو تفسير ما يؤول إليه الشيء. نقول: آل يؤول ومآلا أي رجع، وأول إليه الشيء: رجعه. وفي الشريعة التأويل هو صرف اللفظ عن معناه الظاهر إلى معنى يحتمله.

تترجم كلمة (التأويل) إلى (**الهيرمينوطيقا**) التي تعود اشتقاقيا إلى اللفظ اليوناني (herméneutikè) التي تتضمن كلمة (technè) حيث يحيلنا اللفظ إلى (الفن) أو (الاستعمال التقني لآليات ووسائل لغوية وغيرها قصد الكشف عن حقيقة شيء ما).

تنحدر الكلمة (هيرمينوطيقا) في اليونانية من الفعل (hermeneuein) والذي ينطوي على أفعال خطابية متعددة: نُطق، إعراب، إفصاح، إثبات، تفسير، ترجمة، إلخ. التعبير عن هذه الأفعال الخطابية هو الانتقال من المنطوق إلى الدلالة التي ينطوي عليها. وبالتالي، فإن الكلمة (hermeneia) كانت تحمل هذه الفكرة في الحصول على معنى من خلال كلام منطوق (الخطابة، يدل على ثلاثة معاني متظافرة: التعبير، الشعر، الإيحاء..)، وأصبح الاسم (Hermeneutikè) التأويل، الترجمة. فالهيرمينوطيقا هي فن التعبير عن أشياء النص (صور، أفكار، خواطر...) بتفسيرها فلأنها، وتبيانها وإيضاح معانيها. إذا كانت الكلمة اليونانية تتضمّن على "التقنية (technè) تستعين بمجموعة من الآليات والوظائف للكشف عن المعنى في النص أو في الظاهرة،

وتتبدّى هذه التقنيات في اللغة والمنطق والأساليب البيانية من رمز واستعارة ومجاز. بهذا المعنى، جاز لنا تعريب الهيرمينوطيقا بـ"فن التأويل"[1].

ومن المعلوم أن التأويلية ارتبطت في بداياتها بالنص الديني، وجاءت كتعبير عن الحاجة إلى فهم طبيعة النصوص وكيفية تفسيرها واستعمالها، خاصة النصوص الدينية مثل الكتابات المقدسة أو النصوص الفقهية والتي كانت تضطلع بها معارف مختلفة، مثل علم الكلام أو اللاهوت وفقه اللغة (الفيلولوجيا)... وسرعان ما تجاوزت التأويلية هذا المعنى الضيق لتشمل قراءة النصوص بشكل عام أيا كانت طبيعة هذا النصوص.

ومن المجالات التي انتقلت إليها الهيرمينوطيقا مجال الدراسات الإنسانية والنفسية والاجتماعية التي كان يسميها الألمان بـ(**علوم الروح**)، الأمر الذي جعلها منهجاً يسعى إلى بلوغ الموضوعية في هذه الدراسات بنفس الكيفية التي وصلت بها العلوم المادية نحو الحقيقة، من هنا كان للهيرمينوطيقا بعدا إبستيمولوجيا شمل حقل العلوم الإنسانية عامة.

اللغة والتأويل: يقوم التأويل على اللغة ويشترطها في الآن ذاته؛ باعتبار أن اللغة هي وسيلة وأداة التأويل وموضوعها. ويتجه التأويل إلى مساءلة النص لغويا أي سؤال النص، وتهدف هذه المسائلة إلى تحرير النص من ذاتية المؤلف من خلال إمكان قراءات عديدة وممكنة للنص وإمكان تحقيق فهم مغاير، فالنص في النهاية هو قول يحتمل قولا آخر مختلف.

ينظر **شلايرماخر** (**F.D. E.Schleiermacher** 1832 –1748) إلى اللغة باعتبارها مسلكا للمؤلف في التعبير عن فكره، هذا الاستخدام الخاص للغة من طرف المؤلف هو ما يشكل الجانب الذاتي للغة، أما ما يمنح اللغة الموضوعية فهي عملية الفهم ذاتها التي بها يستقل النص عن فكر المؤلف.

إبستيمولوجيا التأويل في علوم الإنسان: الفهم مقابل التفسير: تشكلت المرحلة الحديثة[*] للهيرمينوطيقا مع **شلايرماخر**، الذي أسس نظرية للفهم من خلال نقل مصطلح الهيرمينوطيقا من مجال الاستخدام الديني ليكون منهجا وأداة لتحقيق عملية الفهم وشروطها في تحليل النصوص، وهو بذلك قد أسهم بشكل فعّال في تحرير هذا المصطلح من التفاسير الدينية وفقه اللغة.

ما يذهب إليه **شلايرماخر** هو أن التعامل مع النص ينبغي دوما أن ينطلق من سوء الفهم كـ"قاعدة" وليس الفهم الذي هو "استثناء"[2]، بمعنى أنه في نظر **شلايرماخر** أننا عرضة لسوء الفهم (Mécompréhension) أكثر من كوننا نفهم بطريقة صحيحة، وسوء الفهم هذا يولد

الحاجة إلى الفهم الصحيح، أي يولد الحاجة إلى ضرورة تأسيس "فن للتأويل" يعصمنا من الخطأ[3].

يميز **شلايرماخر** بين نوعين من التأويل: التأويل اللغوي النحوي(L'interprétation grammatical) والتأويل النفسي (L'interprétation psychologique)؛ يقوم النوع الأول على استخدام الفكر للغة من اجل إدراك ماهية الخطاب. والهدف في هذا التأويل هو إدراك الخطاب من خلال معرفة طريقة استخدام الفكر للغة، لأن النص يتعذر فهمه وتأويله إلا في إطار علاقته باللغة، التي تمكننا من إدراك معنى الخطاب. لأن النص هو عبارة عن وسيط لغوي ينقل فكر المؤلف إلى المتلقي، كما أن اللغة هي الجانب الموضوعي في النص وهي التي تجعل الفهم ممكنا[4]، وأما التأويل النفسي فإن الهدف منه إدراك التجربة الذاتية للمؤلف في كليتها، فالنص ينتج عن التجربة الفردية والذاتية للمؤلف، وهي التجربة الدالة على النشاط الذهني، أي اعتبار النص نتاجا للنفس، من أجل التوافق مع باطن المؤلف وإعادة بناء العملية المنتجة للخطاب. ذلك لأن أي نص يشير إلى اللغة بحالها، فمن حيث هو وسيط فإن وظيفته هي نقل فكر المؤلف – أي يشير إلى الفكر الذاتي للمؤلف ويعكس في الآن ذاته تجربته – إلى القارئ، الذي يسعى إلى إعادة بناء التجربة الذاتية للمؤلف في إطار تاريخي موضوعي للنص عن طريق الكشف مكامن النص وأبعاده. تاريخية النص وتقدمه في الزمن يجعله دوما اقرب إلى سوء الفهم، على هذا الأساس ينبغي أن يتأسس الفهم انطلاقا من اللغة كإطار موضوعي يجعل الفهم مكنا، وانطلاقا أيضا من ماهو نفسي ذاتي يعكس التجربة الخاصة للمؤلف.

كل نص هو فعل إبداعي كما أن القراءة هي أيضا فعل إبداعي، ثنائية النص والقراءة هي بمثابة مفاوضات نابعة من قلقين: "أولهما القلق في أن نُفهَمَ والذي لأجله نكتب، وثانيهما القلق في أن نفهَمَ والذي لأجله نقرأ"[5].

أما **فلهلم دلتاي** (W. Dilthey 1911 – 1833) فقد حاول إيجاد منهجا ملائما لمجال العلوم الإنسانية، ولم يكن هذا المنهج سوى الفهم باعتباره الأنسب إلى هذه المجال. كانت رغبته هي محاولة التأسيس لمنهجية علوم الإنسان تختلف عن المنهج المطبق في علوم الطبيعة، من حيث إن هذه الأخيرة تقوم على التجربة الخارجية (الموضوعية)، بعكس حال العلوم الإنسانية التي تقوم على التجربة الداخلية (الذاتية).

هذا المنحى جعل من الهيرمينوطيقا كنوع من الإبستيمولوجيا تختص بعلوم الإنسان مقابل إبستيمولوجيا علوم الطبيعة، تتجه الأولى إلى اعتبار (الفهم) منهج العلوم الإنسانية، بينما تتجه

الثانية إلى اعتبار (التفسير) منهجا للعلوم الطبيعية.

يمكن القول أن **دلتاي** حاول من خلال الهيرمينوطيقا أن يلتمس للعلوم الإنسانية أساس منهجي يحقق لها استقلاليتها عن العلوم الطبيعية، بحيث تصبح هذه الأخيرة لا تتميز عن العلوم الإنسانية بأدواتها المنهجية، بل في التوجه المعرفي لكل منهما[6].

في حين أن **غادامير** (H. G. Gadamer 2002 –1900) فيذهب إلى أن التأويل ضروريا لما يستحيل فهم دلالة النصوص، فيشير إلى ذلك بالقول: "نتحدث عن التأويل عندما لا يمكن فهم دلالة النص، فالتأويل في هذه الحالة ضروريا، ينبغي صياغة تفكير واضح حول الشروط التي تجعل من النص يتخذ هذه الدلالة آو تلك. الافتراض الأول في مفهوم التأويل هو الطابع (الأجنبي) للأمر الذي نتوخى فهمه، لأن ما هو بديهي أو الشيء الذي يقنعنا بحضوره البسيط لا يطالب بأي تأويل"[7].

وتقوم الهيرمينوطيقا عند **غادامير**على عنصرين، هما: الإنشاء والحوار:

– **الإنشاء:** هو أن كل فهم هو تأويل، يستدعي ذلك دخول المؤول في إنشاء خاص، يؤدي هذا الإنشاء إلى تجديد المعنى ، وتجدد المعنى يفترض استقلالية النص وموضوعيته.

– **الحوار:** كل تأويل لغة، من هنا كانت اللغة طبيعتها حوارية، مهمتها تحويل (الفهم) باعتباره تأويلا إلى (تفاهم).

ونحن نعلم انه قد يتعذر التفاهم بسبب التباين اللغوي، حيث ينتج عن هذا التباين النظر إلى الأشياء وتفسيرها بطرق وأساليب مختلفة. وبالتالي تنشأ مشكلة الفهم والتفسير، إذ يتعذر الوصول إلى تفسيرات موضوعية مادام الفهم ذاته يسمع بتعدد التفسيرات. من هنا، فإن على الهيرمينوطيقا مهمة إيجاد لغة مشتركة بها يتحقق التفاهم.

إبستيمولوجيا يرفض **غادامير** مماثلة علوم الإنسان بعلوم الطبيعة ولاسيما من الناحية المنهجية، ففي كتابه «**الحقيقة والمنهج**» يستبعد إمكان الوصول إلى الحقيقة المطلقة انطلاقا من منهج واحد، فالحقيقة اليقينية لا تتأسس على المنهج، لأن المنهج ذاته ليس إلا وسيلة للاقتراب من الحقيقة فقط.

ويقصد **غادامير** بالمنهج ذلك على الذي يقوم على الموضوعية عن طريق الانفصال الذي يحدثه بين الذات والموضوع، حيث يمكن لعالم الذات تفهم حقيقة عالم الموضوع. يتعلق الأمر هنا بتجاوز الثنائية التقليدية للذات والموضوع في نظرية المعرفة تأثرا بـ**هايديجر** (1889 – 1976

M.Heidegger) وغيره من الفينومينولوجيين المتأثرين بدورهم بفكرة **هوسرل** (1859- 1938 E.Husserl) (**الوجود الإنساني في العالم**) باعتبارها خاصية مميزة لأسلوب وجود الإنسان في العالم لا ينفصل فيه الوعي عن الأشياء الموجودة في عالمه[8].

بشكل عام يمكن القول إن الهيرمينوطيقا أداة منهجية للعلوم الإنسانية، تسعى إلى تسليط الضوء على المنتوج الروحي للتاريخ والفن والتراث، باعتبارها منتوج معطى في خبرتنا المباشرة.

هوامش البحث:

(1)- انظر إلى: محمد شوقي الزين، تأويلات وتفكيكات: فصول في الفكر الغربي المعاصر، المركز الثقافي العربي، بيروت- الدار البيضاء، 2002، ص 29 وما بعدها.

(*)- عرفت المرحلة ما قبل الحديثة للهيرمينوطيقا بالمرحلة الكلاسيكية التي سادت فترة زمنية طويلة وكانت فيها الهيرمينوطيقا محصورة في مجال تفسير النصوص الدينية، وأشهر من يمثل هذه المرحلة فيلون الاسكندري والقديس أوغسطين.

(**2**)- مجموعة من المؤلفين، التأويل والهرمينوطيقا: دراسات في آليات القراءة والتفسير، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، الطبعة الأولى، بيروت، 2011، ص 49.

(**3**)- كيحل مصطفى، الأنسنة والتأويل في فكر محمد أركون، أطروحة دكتوراه، جامعة قسنطينة، السنة الجامعية 2007-2008، ص83

(**4**)- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(**5**)- دايفيد جاسير، مقدمة في الهيرمينوطيقا، ترجمة: وجيه قانصو، الدار العربية للعلوم – منشورات الاختلاف، الطبعة الأولى،الجزائر، 2007ص119.

(**6**)- انظر إلى: سعيد توفيق، في ماهية اللغة وفلسفة التأويل، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، بيروت، 2002، ص88.

(**7**)- غادامير، فلسفة التأويل، الأصول – المبادئ – الأهداف، ترجمة: محمد شوقي الزين، الدار العربية للعلوم- منشورات الاختلاف، الطبعة الثانية، الجزائر، 2006، ص 149.

(**8**)- سعيد توفيق، المرجع نفسه ص 80.